ثورة النفس

بقلم الأستاذ سامى محمد

" قصتى هذه كالماء لا طعم لها ولكنها لذيذة ، قد تكون لذيذة لذتى أنا فقط ... لابأس ! ... أليس لى أن أكتب لنفسى ... ولو ذات مرة ؟ ... "

م.س.م.

كان يتناول راتبه الزهيد فى كل شهر فيفرج به على البقال والجزار والحلاق ، ومن إليهم ... و يوزعه بينهم لكل حسابه ، ثم ينكفئ إلى منزله وليس فى جيبه إلا بضعة قروش يسيرة كان ينفقها أثناء الشهر فى أمور تافهة هى أمثلة من حياته التافهة التى كان يجرها من خلفه كأنها أسمال بالية ...

والحق إن أيامه كانت شاحبات واجمات متشابهات : عمل سخيف مرهق متشابه ، وطعام سخيف رخيص متشابه ، ونوم سخيف باهت لأحلام متشابه ... يا للسخف ! و يا للعار ! أتراه — وقد خلق — لم يخلق إلا لتحيا فكرة السخف فيه وتتجسد وتنتقل حية ظاهرة بين الناس ؟

كان هذا شأنه من قبل . أما اليوم ، أما الليلة ، فلا ثم لا ... فقد تناول راتبه العزيز بعد انتظار طويف ... وقصد إلى أفخم مطعم فى المدينة بأسرها معتزما أن يصيب فيه عشاء لذيذا فاخرا ، ولو كلفه بعض راتبه أو نصفه ، حتى أو كله ... ولا بدع ، إنه لن يكون بعد اليوم ذلك الثور الذى ما ينفك يدور حول الساحات بغير غاية يدركها ... ! كلا ، ثم كلا ... إنه شاب ... إنه زوبعة وأعصار ... إنه روح الله فى صدر صرصور ... إنه سيعرف بعد اليوم كيف يحطم هذا الجسد الحقير التافه ليفسح المجال أمام هذا الروح العظيم ... وما قيمة الحياة إذا كانت متشابهة ؟ ... إنها يوم واحد سخيف مملل متبرم به ... ولن يكون هذا بعد اليوم ... !

كانت له هذه جميعا فى هذا المطعم الأنيق الأغيد الذى غشيه بعد تردد ، وأمام مائدة زاهية حملت كل ما تستطيع من طعام شهى وخمر متلهفة وسجائر حالمة ... جلس يشبع حواسه و يستمتع و يتشفى .. نعم ، و يتشفى ... !

وجاست الى المائدة المجاورة غادة فاتنة الزى عبقرية الجمال ، قوية النظرات ... رنت إليه فى زهو ، وكأنها تدعوه أن يشبع لنظر من جمالها الرائع الأخاذ !

أتراها ترنو اليه ، أم أن العيون الحسان تبدو أبدا وكأنهن يغازلن كل من تقع عليه نظرتهن الفاتنة ؟ ... هكذا همس لنفسه ... إنه لا يثق على القدر فى هذه الساعة العظيمة أكثر من أن تنظر إليه ، انه سعيد جهد السعادة ... يالله من شعاع علوى مسكر ذلك الذى يتمادى فى عينيها .. !

ولقد ابتسم له المكان والكون جميعا بتلك الأنوار السعيدة الجذلى ، حين التفتت إليه الغانية وابتسمت له ، وحين رآها على المقعد الذى أمامه ترد تحيته وتقبل سيجارته بعد لأى . . . !

ولقد حدثها وأسهب فى الحديث ، زاعما لها أنه الوحيد لأحد سراة البلد ، وأنه ما دخل هذا المطعم إلا ليصيب فيه عشاء هادئا ، وكأسا من الخمر منعشة ، ويفوز ببعض الهدوء والصفاء اللذين ما فتئ ينشدهما فى جوه المألوف عبثا . . .

ولقد أكلا وشربا ثم شربا ، ولم يلبث الليل أن غاض إلا أقله ، وسرعان ماجاء خادم المطعم وهو ينفض عن عينيه طيف نعاس ، ويمنى يديه بعطاء جزيل ...

اقترب من مائدة الفتى وهو يقدم بطاقة صغيرة أوجز فيها الحساب بخط كريه ، ما كان أثقله على قلب فتانا عندما اتضح له أنه أكثر مما فى جيبه ... وسرعان ماتنبهت الفتاة الى الحقيقة المرة ، فقامت وفى نفسها ألم وسخط ، وهى تنظر اليه شزرا ، وأولته كتفها ساخرة... وكان قلب صاحب المطعم أشد قسوة من قلب الفتاة ، إذ لم يلن إلا بعد أن استولى على ساعة الفتى ، متفضلا عليه بقروش يسيرة ...

رجع إلى منزله كمن ينتقل من حياة صاخبة الى مقبرة هادئة ، وليس فى جيبه من كل راتبه إلا بضعة القروش ، وعلى سريره الكئيب الواجم انطرح بكل ثيابه ، وبكل خيبة وحسرة ، حتى الصباح . . . !

وفى اليوم التالى انتبه من نومه كالعادة على ألم صارخ شديد فى رأسه ونفسه وجسده .. ثم نهض ... ليتظر إلحاح البقال البغيض ذى النظرات الطافحة بمعنى طلب النقود فى كل مناسبة أو فى مناسبة . . وفى كل حين أو فى غير حين . . والجزار الضخم ذى الشاربين المفتولين واليدين المخضبتين . . . والحلاق المؤدب الذى ما يفتأ أبدا يبتسم ويغرك يديه ويتنسم . . . !ولصاحب البوفيه القائم فى مكان عمله قروش يسيرة ، ولكنه عليها حريص !

وكان للخمر فى رأسه ضباب صفيق مظلم ، وفى أجفانه اضطراب وثقل ، والكون عابس فى وجهه مكفهر ، والنفس فريسة للقلق الذى يساورها ... ولكنه استطاع أن يخلص آخر الأمر من إلحاح هؤلاء جميعا ، واتخذ القطار إلى ضاحية من ضواحى المدينة ليقضى سحابة يومه منطرحا بجسده المجهد ونفسه المرهقة فى حقل من الحنطة زاه ، فلا هو بالنائم ولا بالمستيقظ ، لا يبالى ، ولا يتألم ، ولا يفكر فى شىء . . . !

وعند الأصيل قام الى مزرعة مجاورة وابتاع شيئا من الخس وغسله بماء الترعة ، ثم جلس على العشب يلتهمه كعجل حالم يتلهى بما أمامه من خضرة زاهية . . .

ولما فرغ من ذلك ، عكف يشعل السيجارة الأولى فى يومه ، وإذا بعجوز حسن الزى وفور الملامح وديع النظرات ، فى وجهه شعرات بيض كأنها فضلات ثلج تهمس على أرض جرداء ، وفى يده غليون محشو ، وعلى شفتيه سؤال واضح يتردد ... ففهم صاحبنا بداهة ومد له عود الثقاب ، فتناوله العجوز شاكرا ، وأشعل غليونه وهو يقول :

— شكرا يا بنيّ . . . إنى آسف لأن أكون قد قطعت عليك عزلتك .

— كلا يا سيدى . . . إننى هنا منذ الصباح وقد كدت أسأم الوحدة .

— حقا . . . إن النفس لتسأم الهدوء كما تسأم الصخب ، وفى التغيير وحده متاعها وراحتها .

ففكر صاحبنا لحظة ثم أجاب :

— ومن ينكر أن فى التغيير سر الحياة المستغلق ؟

فاقتعد الشيخ العشب قبالة الفتى بغير دعوة ، أو كان الموقف والجو وشهوة الحديث جميعا هى التى دعته إلى الجلوس ، ثم قال :

— ولشد ما يحس المرء يا بنى هذا التغيير فى التاريخ . . . إن التاريخ هو عزائى الوحيد فى أيامى الباقيات ... إننى أقرأ فيه الماضى وأرى الحاضر وأتنبأ بالمستقبل . وإن متاعه الذى لايحد ولا يسأم هو الذى انتزعنى من العمل ومن الناس أجمعين وخلص بى إلى هذه الناحية لمطمئنة مع زوجتى كشخصين من أشخاص التاريخ فى ألمهما وهدوئهما ووحدتهما...

ولم ترق للفتى الخامد فى تلك اللحظة هذه المحاضرة المفاجئة ، وكاد يهم بصاحبه فيسفه له التاريخ ورجاله وأبطاله وعبره ، ولكن ثقلا فى معدته وفتورا فى نفسه وعتمة فى دماغه جعلته يؤثر السلام و يلتزم الصمت .

على أن صاحبه لم يرق له أن يدعه وشأنه فسأله برفق :

— أتقرأ التاريخ يابنى ؟ أعنى ألك بالتاريخ كلف ؟

فقال الفتى يرد عليه بلهجة فيها رنة السخرية الخفية :

— إننى لا أهتم بالحاضر فضلا عن الماضى ياسيدى ... إننى أعيش لأننى لاأموت !

فضحك الرجل ضحكة قصيرة رقيقة وقال :

— إذن فأنت فيلسوف متشائم قبل الأوان ... كلا ، كلا يابنى ... إنى لأراك فى ضلال مبين . ولو أنك كنت قد ألفت التاريخ وعلقت به وأدمنت مطالعته لطالعتك من خلال حوادثه وعبره روح نزاعة لا تكلّ ، وعزم حديدى لايفلّ . إننى أطالع الآن كتابا قيما من هذه الكتب الحديثة عن الحروب الصليبية ، وإنى والله لأجد فيه من العبرة والمتاع ما لايجده الانسان فى عمر طويل . وإننى ...

وكانت الشمس قد تدلت إلى الأفق مودّعة ، وبهت النهار وغيض لونه ، وسرت فيه رعدة ، فتحرك الفتى للقيام وهو يقول :

— سنتحدث فى طريقنا إلى المحطة إذا شئت ياسيدى ... إنى لايزال علىّ أن أعود إلى المدينة .

فقاما ومضيا على مهل ، العجوز يكمل محاضرته المتحمسة فى التاريخ ، والفتى عنه فى شغل بهذه البلاد التى احتلت ذهنه وخيمت على رأسه ، وبهذا النعاس الشديد الذى أخذ يثقل جفنيه ...

ولما بلغا بيت الرجل وهما فى طريقهما إلى المحطة وقف الفتى يودعه شاكرا له هذه المحاضرة القيمة التى لم يلم منها مع الأسف بحرف واحد ، ولكن الرجل وقد لمس فى صاحبه الوداعة والظرف ، وفى روحه النشاط والحماسة ، دعاه إلى تناول القهوة عنده ، فشكر له الفتى هذه المكرمة واعتذر ، فألح الرجل وأصر على دعوته ...

وتقدمه إلى منزله والفتى من ورائه يتبعه ، يصرفه عنه سأم عظيم ، ونعاس مستحوذ ، ويدفعه إليه فضول خامل يريد أن يستيقظ فى نفسه على وفاء وإعياء ، من وراء سحب البلادة الكثيفة التى تخيم على عقله ...

وتقدمه الرجل الى غرفة صغيرة هادئة فى مدخل المنزل ، أثاثها قليل مرتب ، وهدوؤها يغمر النفس بالصفاء والراحة والسلام ...

وطلب الرجل القهوة الموعودة ، ثم جلس إليه يقول :

— هنا ، وفى هذه الغرفة المنعزلة عن بقية المنزل ، أنفق الساعات والأيام مع كتبى الغاليات المليئة بالاسرار والعبر ، وإنى لأعتذر عن قلة الأثاث ، فإنى لأحب البساطة ، وأتلمسها فى كل شىء .

كانت الغرفة بسيطة الأثاث ، متواضعة حقا ، كما قال صاحبها ، بها منضدة فرشت عليها بعض الكتب ، وإلى جانبها خزانة بها أكداس أخرى من الكتب ، وحولها بضعة مقاعد مريحة مصفوفة ، وفى الناحية الاخرى سرير خفيض نظيف ، ترتاح اليه العين قبل الجسد ، ويغرى على النوم ، وإلى جانب السرير منضدة صغيرة عليها ساعة قديمة كانت ترسل دقاتها الموسوسة الخافتة ... ...

واستأنف الرجل محاضرته ، وخيال الفتى المتهالك ينصرف عنه تباعا ليدلف إلى هذا السرير المريح ، يحسر عنه الغطاء قليلا ، ثم يندس تحته ويستسلم إلى نوم عميق ، ليس يعنيه قط أن يفيق منه أبدا ... !

واستغلقت على الرجل نقطة خطيرة فى محاضرته ، فقام إلى خزانة الكتب ليجئ بمرجعها فلم يجده ، فراح يتلمسه فى غرفة أخرى ...

واختلس الفتى من السرير نظرة فإذا هو رحيم رحيب حنون ، وإذا صوت الساعة يرتد فى سمعه أغنية رقيقة حالمة ترددها أم رؤوم على مهد وحيدها الغالى لينام ، وإذا طلائع الليل الساجية المهيجة تغمر الغرفة ... وإذا هو ينهض من مجلسه بحركة آلية قسرية ، فيخلع حذاءه ويحسر الغطاء عن السرير قليلا ، ثم يندس تحته ويتردى فى أعماق غيب مدبر غير ذى قرار ...

ولما عاد الرجل بعد حين ، وعبر الغرفة بنظرة دهشة شاملة باحثا عن ضيفه ، إذ لمحه فى السرير يغط فى نومه ، فسمرت قدماه حيث هما ، وتعلقت عيناه بالسرير تحملقان فيه عجبا ، و ... ... ! !

سامى محمد
سكرتير تحرير مجلة الشؤون الاجتماعية